بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

للثقافة فى أذهان الباحثين فهمان شهيران ، يتفقان فى جزء من مفهومهما ، ويختلفان فى الجزء الآخر . فأما أول الفهمين فهو قائم بأذهان أصحاب الدراسات الإنسانية التى تهتم بدراسة حياة المجتمعات البدائية ، وأهمها الأنثروبولوجيا ، وأما الثانى فيلتزم به الناظرون فى الحياة الفكرية للشعوب المتقدمة . والثقافة فى نظر الأولين هى طريقة الحياة ، وفى نظر الآخرين هى نتاج الفكر ، وتشتمل الثقافة بالمعنى الأول على كل نواحى النشاط العادى كالعمل ، والعبادة ، والزواج ، والاحتفالات ، وكل ما يصدق عليه أنه من العادات والتقاليد ، على حين تشمل الثقافة بالمعنى الثانى كل نواحى النشاط الفكرى كالفلسفة ، والعلم ، والأدب ، والفن بفروعه المختلفة .

واللغة بالمعنيين السابقين كليهما وعاء الثقافة ؛ فهى بالمعنى الأول تسمى العادات والتقاليد بأسمائها المختلفة ، كما تضع أسماء لأدوات العمل وطقوس العبادة ، ومراسيم الزواج والاحتفالات ، ومن هنا أصبح لزاماً على طلاب الأنثروبولوجيا عند دراسة أى مجتمع بدائى أن يقدموا لهـــذه الدراسة بتعلم لغة هذا المجتمع . وبدراسة ما بها من مفردات تشير إلى النواحى المختلفة من النشاط العادى . واللغة بالمعنى

الثانى تعبر عن الأفكار ، وتمدها بالاصطلاحات الفنية ، وتعكس على التفكير بها ما تتميز به عباراتها من دقة أو لبس ، وما تتميز به هى من غنى أو فقر فى طرق التعبير ، ومرونة أو استعصاء على خلق المفردات الجديدة للأفكار الجديدة ، عن طريق الاشتقاق أو تطويع الكلمات الأجنبية لقوالب الصياغة بها ، أو ارتجال الألفاظ على مثال هـــذه القوالب ارتجالا لا تكلف فيه ولا تعنت .

واللغة بكونها وعاء الحياة ووعاء الفكر أهم رابطة قومية تربط أبناء الشعب الواحد برباط العبارة المشتركة ، والفهم المشترك ، وأهم رابطة بالماضى تربط الأجيال المختلفة من الشعب الواحد برباط توارث هذه العبارة وهذا الفهم . وكل رابطة أخرى إلى جانب اللغة ـ كالتاريخ المشترك والأدب والعادات ـــ هى نتيجة من نتائج الشركة فى اللغة . ولم تكن رابطة الدم ـــ ولن تكون ـــ فى أى شعب من الشعوب أقوى من رابطة اللغة ؛ ذلك بأن رابطة الدم هـــذه غامضة لا يمكن التعويل عليها ؛ إذ لا يستطيع شعب من الشعوب أن يدعى نقاء دمه ، ولا براءته من الدماء الدخيلة ، بل لا يستطيع إنسان أن يدعى لنفسه نسبا معينا ثم يقسم على صحته يمينا برة ؛ لأن صحة هذا النسب أو تلفيقه تخضع فى الغالب لأسرار بيتية لا يعلمها ، وعلاقات إنسانية ليس لديه سند منها أو دليل ، ومن ثم لم يعد من المقبول أن يدعى العرب الشركة فى الدم شركة تشملهم جميعا ، ولا تغادر منهم أحدا ، ولكن من المؤكد أن بين العرب شركة فى اللغة لا يفلت منها عربى واحد .

فالقومية العربية بهذا الفهم رابطة بين العرب أهم مظاهرها الشركة فى اللغة ؛ فمن تكلم العربية واتخذها لغة له ، وعاش فى المجتمع العربى عيشة العربى ، وأحس بما يحس به العرب من ألم أو أمل فهو عربى ، ولو كان فارسى الدم أو تركيه أو روميه ، كذلك كان الفلاسفة والنحاة والفقهاء الذين حفلت بهم الدولة العربية الإسلامية ، بل كذلك كان سيبويه وأبو حنيفة وابن سينا وابن الرومى ، مثلهم فى ذلك مثل من طالت به الإقامة فى بلادنا من الأجانب أو ولد فيها ، فاكتسب جنسيتنا ، فأصبح واحدا منا ، نفخر بتفوقه لأنه نتاج بيئتنا .

هذه مقدمة لابد منها للرد على المؤلف « ديلاسى أوليرى » الذى جعل عنوان كتابه هذا الذى نقدم له :

Arabic Throght and Its Place in History

ولا يخفى من استعماله كلمة Arabic دون كلمة Arab أنه يقصد الإشارة إلى أن الفكر العربى الذى جعل موضوعا للكتاب لم يكن Arab وإنما كان Arabic ؛ أى أنه لم تنتجه دائماً قرائح عربية ، ولكنه كان فكرا باللغة العربية قام به قلة من العرب وكثرة من غيرهم ، ولا تقتصر هذه الدعوى منه على أن تكون إشارة فى العنوان ؛ وإنما تصبح بعد ذلك تصريحا فى صلب الكتاب ، حيث يقول فى الفصل السادس : « وإنها لحقيقة غريبة أن الكندى أبا الفلسفة العربية كان من بين القليلين من أئمة الفكر العربى الذين كانوا عربا بالعنصر ؛ فأغلب علماء العالم الإسلامى وفلاسفته جرى فى عروقهم الدم الفارسى أو التركى أو البربرى ، ولكن الكندى نمته قبيلة كندة اليمانية » .

والمؤلف يصر على ذلك ، بل يتخذه ذريعة للطعن فى العرب ، وللقول بأنه لولا الشعوب المسلمة الأخرى لما كان للعرب علم ولا فلسفة ، فهو يقول فى كلامه عن الكندى أيضاً : « ومما لا فائدة فيه أن ندعى أن تاريخ الفلسفة العربية يرينا ضعفا فى أصالة العقل السامى ، لسبب واحد : هو أننا لا نجد واحداً من فلاسفة المرتبة الأولى بعد الكندى عربيا بمولده ، وقليل منهم يمكن أن يوصف بأنه سامى » . وفحوى هذا الكلام واضحة جدا ؛ فلقد تعود المستشرقون من قبل « أوليرى » أن يرموا العقل السامى بعدم الأصالة ، وهذه دعوى تنسب إلى الساميين عقلا على الأقل ، وإن لم يكن هذا العقل أصيلا . ولكن « أوليرى » لا يرى فى ذلك فائدة تفيد فى الطعن على العرب ، ومن ثم يوحى إلى المستشرقين بمطعن آخر أبلغ فى إصابة مقاتل العرب ؛ وذلك أن يسلب العرب أى تفكير فلسفى ، ويجعل الفلاسفة من طينة غير طينة العرب تماماً .

والرأى هنا أن من لم يجر فى عروقهم الدم العربى من علماء الإسلام ، ولكنهم عاشوا فى المجتمع العربى ، وتكلموا العربية ، وأحسوا بما كان يحس به العرب هم فى الحقيقة عرب باللغة والمكان والإحساس ، وكلها يعتبر من الروابط القومية أكثر مما يعتبر الدم . « وقد اجتمع هؤلاء جميعاً على غاية واحدة هى الرغبة الصادقة فى خدمة لغة العرب وثقافة العرب ، فكان كل واحد منهم عربى الفكر ولو كان غير عربى الدم والنسب ، أو على حد تعبير أبى الحسن بن بشر الأسدى يرثى أبا العباس محمد بن أحمد المعمرى النحوى :

كان على أعجمى نسبته فضيلة من فضائل العرب(١)

* * *

والحياة فى كل نواحيها معترك بين الناس ؛ يصدق ذلك على الأمم كما يصدق على الأفراد . ولم يزل الناس منذ قابيل وهابيل إذا لم يحصلوا على ما يريدون بالسلم وصلوا إليه بالحرب والغلبة . ولم يزل الإنسان يطمع فيما فى يد أخيه الإنسان ، إن لم يكن بدافع الحاجة فبدافع الأثرة.

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

وإذا حاربت الهمجية الأولى بالأظفار والأحجار ، فقد خلقت المدنية من أظفارها سيوفا ، وحولت أحجارها من الأكف إلى المجانيق ، كما حولت الحرب من عمل فردى إلى عمل جماعى وقومى ، فعدت الأمة على الأمة ، وأغارت الشعوب على الشعوب ، واختلط هؤلاء وأولئك فى صورة تجعل من المستحيل على أحد الفريقين ألا يعرف ما فى يد الآخر ، ثم يأخذه عنه بالتقليد والمحاكاة . ولم يزل ذلك أثراً من آثار المخالطة ، سواء أكانت هذه المخالطة نتيجة من نتائج الغزو أو أثراً من آثار الجوار .

والثقافات مجال من مجالات التقليد والأخذ ؛ ذلك أن ثقافة أى شعب إنما هى أمر متوارث على مر العصور ، صالح للتبديل والتحويل قدر ما يتغير العرف والفكر. فإذا عرض لثقافة من الثقافات من المؤثرات ما هو صالح لأن يبدلها أو يعدلها ، كان ما يلحقها من تبديل أو تعديل

---

(١) اللغة بين المعيارية والوصفية للمترجم . ص ١٧٣

دليـل حيوية ومرونة ، لادليـل خسة وركود ، ويصدق ذلك على الثقافات بالمعنيين السابقين جميعاً ، ولقـد قامت الدلائل على تأثر الإغريق بالمصريين ، وعلى تأثر الرومان بالإغريق وعلى تأثر كليهما بالفرس وتأثيرهم فيهم ، ثم على أثر كل أولئك فى العرب ، ثم على أخذ الثقافة الأوربية عن كل هذه الأمم ، ومن بينها وأشدها أثرا العرب ، فإذا قال قائل : إن أمة قد أخذت عن أمة ، فتلك سنة الحياة ، وإذا كان ثمة فخر للأمة المعطية فلا عار على الأمة الآخذة ، وإنما لها فخر الفهم والهضم والاستيعاب والإضافة ، والإنسانية وحدة متفاعلة ، وثقافتها كل لا يتجزأ ، وإنما يضيف اللاحق إلى ماتركه السابق من كل الأمم والعصور .

غير أن هذه الحقيقة العليا التى لاتقبل الجدل لاينبغى أن يلتوى بها بعض الكتاب ، وأن يجندوها لصالح ثقافة على حساب أخرى ، على نحو ما تفعل طائفة من المستشرقين . ولشد ما يحلو لهؤلاء أن يتلمسوا فى الثقافات الشرقية — سواء فى ذلك الهندية والفارسية والعربية وغيرها — أموراً يتكلفون ردها إلى الفكر الإغريقى أو الرومانى ، ويتزيدون فى ذلك حتى يوحوا إلى القارىء بفاعلية الغرب وانفعالية الشرق ، ويدفعوه إلى اعتقاد تفوق الذهن الغربى وتواكل العقل الشرقى . وهم فى سبيل الوصول إلى هذه الغاية يسوقون من الدعاوى والمغالطات مالا قدرة للقارىء العادى على رده ؛ فهو إما أن يقف منها موقف المسلم عن جهل ، أو موقف المتحمس لما قرأ إما بدافع

الإعجاب ، أو بدافع الرغبة فى الظهور بمظهر المطلع المثقف فى غير لغته .

وصاحب هذا الكتاب من بين غلاة المستشرقين الذين يتلمسون فى ثقافة العرب ما يرجون أن يردوه لأدنى شبه إلى ثقافة الإغريق أو الرومان ، فالفقه الإسلامى فى رأيه آخذ عن القانون الرومانى ؛ لأن العرب وجدوا فى الأقاليم الرومانية المفتوحة أوضاعا فقهية أقروها ، والفلسفة الإسلامية فى نظره طور من أطوار الفلسفة الهلينية ؛ لأن العرب بحثوا المشاكل الفلسفية التى بحثها الفلاسفة الهلينيون ، والتصوف الإسلامى ذو روافد من الأفلاطونية الحديثة ؛ لأنه اتفق معها فى بعض الآراء ، بل إن العقيدة الأسلامية نفسها تشتمل على عناصر هلينية ، لأنها ارتضت بعض ما ارتضته المسيحية أو الفلسفة الهلينية ، وينسى المؤلف أن فقه الإسلام مصدره الكتاب والسنة ، وأن فلسفة الإسلام وإن بدأت فى ظل مؤثرات هلينية قد اشتقت لنفسها طريقا إسلاميا خالصا ، وأنها ارتبطت بالبيئة الإسلامية برباط محكم ، وأن التصوف الإسلامى وإن اشتمل على أفكار شرقية وغربية قد استمد وحيه من سيرة النبى ﷺ ، وأن العقيدة الإسلامية قد بلغها رسول لم يتل قبل القرآن من كتاب ولا خطه بيمينه . نسى المؤلف ذلك ، أو لعله تناساه ، ليعلى من شأن الإغريق الأوربيين ، أبناء قارته وبنى عمومته وأسلافه الفكريين ، وليحط من شأن العرب إما لدوافع عنصرية ، أو دينية ، أو هما معا .

والحق أن الثقافة العربية يمكن تقسيمها إلى أقسام ثلاثة أقسام :

أولها : أفكار تدور حول الكتاب والسنة شرحا وتفصيلا ، وتتناول من أمور البيئة المسلمة أموراً تتصل بتنظيم هذه البيئة ، وذلك كالتفسير والحديث والفقه وأصوله ودراسة الأدب واللغة وهلم جرا ؛ والعرب فى هذه الطائفة من الأفكار أصحاب أصالة ، لا يأخذون من الخارج شيئاً ذا بال ، ولا يعتمدون عليه فى شىء له خطر ، إلا ما يدعيه بعضهم دعوى غامضة من تأثر النحو العربى بالتقسيمات والحدود لا بالتفصيلات التى فى النحو الإغريقى ، من خلال معرفة العرب بالنحو السريانى المتأثر بالإغريق فى هذه النواحى. وثانيها : أفكار إسلامية فى الإلهيات : سواء فى ذلك ما كان منها لأهل الشريعة وما كان لأهل الحقيقة ؛ فأما أهل الشريعة أو أصحاب الفرق والمتكلمون فلا شك فى انتفاعهم بالأقيسة الأغريقية المنطقية ، لا لفقر المادة الإسلامية إلى هذه الأقيسة ، بل لأن المنطق كان سلاح المناظرين الإسلام من المسيحيين ؛ فرأى المسلمون أن يدافعوا عن دينهم بسلاح مناظريهم . أما مادة الإلهيات عند هؤلاء فلم يرج فى المجتمع الإسلامى منها إلا ما استوحى اتجاهه من الكتاب والسنة . وإذا نظرنا إلى أهل الحقيقة أو الصوفية ، فإن موقفهم من ثقافة الإغريق يمكن فهمه إذا أخذنا فى الاعتبار العداء الفكرى الشديد بين الصوفية والمشائين ، أو بين أصحاب الذوق وأصحاب النظر ، أو بعبارة أخيرة بين أصحاب التجربة وأصحاب الفلسفة . وثالث أقسام الثقافة العربية : أفكار وآراء فلسفية ، اتخذت نقطة ابتداء لها من فلسفة الإغريق ، ثم اتضح للمسلمين شيئاً فشيئاً عمق الهوة التى بين هذه الفلسفة وبين الإلهيات الإسلامية ، فاختطوا لأنفسهم طريقاً فكرياً

خاصاً لا يتعارض مع الإسلام ولا يتطابق مع فلسفة الإغريق . ونمت فلسفتهم فى هذا الاتجاه ، حتى اضطر المدرسيون من فلاسفة المسيحية أن يعلنوا سخطهم على بعض آرائها ؛ لأنها ذات خطر على الأفكار المسيحيه اللاهوتية . وكان مجال هذا الخطر هو النقط التى تختلف عليها الديانتان الإسلامية والمسيحية ؛ وفى ذلك دليل على الصبغة الإسلامية الخاصة التى كانت لهذه الفلسفة . ولعل هذا القسم الأخير من أقسام الثقافة الإسلامية أقواها وشيجة بالتراث الإغريقى .

* * *

وحين قرأت هذا الكتاب لأول مرة راعنى منه موقفه من الثقافة العربية ، وشق على أن يقرأه بعض القادرين على قراءة اللغة الإنجليزية من العرب فيعتقدون ما فيه من طعن على العرب . دون أن تكون لهم المقدرة على رد آرائه ؛ فمعظم الذين يقرأون الإنجليزية عندنا من غير المتعمقين فى الثقافة العربيـــة القديمة ، ومن هنا لا بد أن أن تتوقع منهم أن يكون موقفهم من آراء هذا الكتاب هو موقف القارئ العادى الذى ورد ذكره ، لهذا قررت أن أترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية ، وأن أعلق على ما يمكننى التعليق عليه من مغالطاته ، ثم حين يصبح النص العربى فى يد القراء ، يكون من السهل على أصحاب الثقافة الإسلامية الذين لا يقرأون الإنجليزية أن يردوا على مافى هذا الكتاب بأكثر مما كان فى طوقى أن أرد به فى هذا التقديم .

على أنه لا يجدر بى أن أسلب هذا الكتاب حقه من الثناء ، مهما كان ميالا إلى التحامل على الثقافة العربية ، ذلك أن المؤلف قد توافر

له من الظروف ما كان كفيلا أن ينتج كتابا من الدرجة الأولى من حيث سعة الأفق الفكرى ، وغزارة المنهل الذى يستمد منه معلوماته . فالمؤلف مستشرق إيرلندى الأصل كان يعمل أستاذا فى جامعة برستول، فكانت لغته العلمية هى الإنجليزية ؛ ولكنه كان يحذق إلى جانبها اللغتين الفرنسية والألمانية ، وعدداً من اللغات الحديثة والقديمة فى أوربا والشرق ، كالإغريقية واللاتينية والعربية والسريانية والعبرية والفارسية . فهذه مجموعة من اللغات الهامة لأى باحث يشتغل فى ميدان كهذا . فأما اللغات الثلاث الأولى — الإنجليزية والفرنسية والألمانية — فهى وعاء الثقافة الحديثة ، وهى ذات تراث حافل بما كتب عن هذا الموضوع وعن غيره ، وأما اللغتان الإغريقية واللاتينية ، فلا تقلان خطرا فى هذا الصدد ، لأن أولاهما تشتمل على مايرى المؤلف أنه المنبع الذى استمدت منه الثقافة العربية ، وأما الثانية فلأنهـــا عاصرت تفوق اللغة العربية ونقلت عنها، ونقلت منها، وقامت إلى جانبها حتى نهاية العصور الوسطى وبداية النهضة الأوربية الحديثة . فلا مشاحة فى أن الكثير مما يرد ذكره فى التراث العربى يجد إيضاحا له فى إحدى هاتين اللغتين أو فى كلتيهما . وأما اللغات الثلاث السامية المذكورة هنا — وهى العربية والسريانية والعبرية — فهى لغات الديانات والوحى ؛ فكل نقاش يدور من قرب أو من بعد حول الدين لابد أن يعتمد على مادة مكتوبة بإحدى هـذه اللغات . وإن العربية والسريانية من بين هذه اللغات لتبرزان أكثر مما تبرز العبرية باعتبارهما لغتى ثقافة هامتين جدا ؛ بل إن العربية من بين هذه الثلاث ظلت حقبة

من الزمان تعتبر اللغة العلمية التى كان لابد لطلاب المعرفة فى كل مكان من معرفتها وحذقها . وأما الفارسية فقد اشتملت على تراث إسلامى لايستهان به ، ولا سيما فى الحقل الصوفى . فإذا اجتمع لمؤلف كصاحب هذا الكتاب مثل هذا العدد من اللغات التى تتصل بموضوعه صلة خاصة ، فلا شك أن هذا يضع بين يديه من المصادر والمراجع ما لا يستطيع الكثيرون غيره أن ينتفعوا به . وتلك ناحية هامة لا ينبغى إغفالها عند النظر فى تقويم هذا الكتاب الذى بين أيدينا .

وإذا كان ذلك هاما بالنسبة إلى قيمة الكتاب نفسه ، فلا شك أنه أكثر أهمية بالنسبة لإضافة ترجمة هذا الكتاب إلى المكتبة العربية . ذلك بأن المؤلفين العرب القدماء والمحدثين على السواء لا يجمع الواحد منهم مثل هذا العدد من اللغات فى حصيلته ، وكتاباتهم على ما لها من قيمة وما بها من دقة وعمق تستشعر الحاجة إلى سعة الأفق وشمول النظرة . وإن الكثير منهم ليتناول التراث العربى كما لو كان منعزلا عن التيارات الخارجية ، مستقلا بنفسه self-contained — لم يؤثر ولم يتأثر ؛ أو يضع هذا التراث فى إطار لا يبعد به كثيراً عن هذه الصورة . ومن ثم ينعون فى غلطة هى عكس ما أخذناه على صاحب هذا الكتاب ، لأنهم يغالون فى دعوى الاستقلال . ويغالى هو فى دعوى التأثر والأخذ . فوضع هذا الكتاب فى المكتبة العربية إلى جانب ما كتبه هؤلاء المؤلفون العرب سيمكن القارئ المدقق من الوصول إلى تقدير مدى تأثر الفكر العربى بالثقافة الإغريقية تقديراً سليما .

أضف إلى ذلك أن هذا الكتاب ينصف الفكر العربى — ولا يستطيع إلا إنصافه — حين يشرح الطريقة التى وصلت بها أفكار العرب إلى أوربا الحديثة ، وإن كان يغالى فى موقف الأوربيين فى عصر النهضة من تعاليم الثقافة العربية ، ويصورهم فى صورة النقاد الذين يحجمون قصدا عن الأخذ ببعض فروع هذه الثقافة ؛ ولكنهم لم يكونوا نقادا بقدر ما كانوا تلاميذا . يفعل ذلك مثلا حين يتكلم عن سقوط الطب العربى فى نظر الأوربيين ، ولكنه مع هذا لا يستطيع أن ينكر أن الجامعات الأوربية كانت تدرس هذا الطب باعتباره جزءا من مناهجها ، وأن الفلاسفة المدرسيين انقسموا فى تفكيرهم إلى فريقين يحمل كل منهما اسم ابن رشد : فكان منهم « الرشديون » و « خصوم ابن رشد » ، ثم هو لا ينكر فى مقدمة كتابه أن الفكر العربى « أصبح عاملا مثيراً ، فحول الفلسفة المسيحية إلى مسالك جديدة ، وكاد يذيب اللاهوت التقليدى فى الكنيسة ، وأدى مباشرة إلى النهضة التى كانت الضربة القاضية لثقافة القرون الوسطى » .

ولكون مؤلف هذا الكتاب مستشرقا ينتمى إلى بيئة ، لا هى بالإسلامية ولا العربية ، يثير فى نفوسنا دواعى الانتباه حين نقرأ له رأيه فى الفرق الإسلامية المختلفة . بل إنه يثير انتباهنا كذلك حين يتكلم فى أعلام الفكر العربى بروح ليس لها موقف تقليدى من هؤلاء الأعلام ، ولعل ذلك من حسنات هذا الكتاب أكثر مما هو من مساوئه ؛ لأنه يعرض هذه الفرق وهؤلاء الأعلام من زاوية لا تتفق كثيراً لأتباع هذه الفرق والمعجبين بهؤلاء الأعلام ،

ولأن المسلم منا ينظر بعين العطف إلى أبناء مذهبه فى الدين ، وبعين الإشفاق إلى أبناء المذاهب الأخرى ، ومن ثم يصعب عليه عند إرادة البحث العلمى الذى لايعرف العطف والإشفاق . أن يتخذ لنفسه موقفاً خلوا من أى منهما .

وبعد ، فهذا كتاب أقدمه للناس بعد أن اقتنعت بأنه ينقص المكتبة العربية ؛ لأن موضوعه على خطورته لا يستطاع الوصول اليه تاما أبدا فى الكتب العربية ، فإذا وصل المرء إلى جمله فلن يكون ذلك إلا بالجهـــد المضنى فى قراءة المطولات ، وانتخاب الموضوعات ، وتمحيص العبارات .

والله أسأل أن يجعله بحيث قصدت به أن يكون نافعاً ومفيداً ، إنه هو — سبحانه — ولى التوفيق ، وهو حسبنا ونعم النصير ؟

المعادى فى يناير سنة ١٩٦١ المترجم

مقدمة

يتتبع التاريخ تطور البنية الاجتماعية التى يوجد المجتمع اليوم فيها ؛ وثمة ثلاثة عوامل رئيسية تعمل فى هذا التطور ، هى : التسلسل العنصرى القومى ، واتجاه تيار الثقافة ، وانتقال اللغة . وأول هذه العوامل فسيولوجى ؛ ولا يتحتم أن يكون متصلا بالعاملين الآخرين ، على حين لا يرتبط كل من هذين العاملين بالآخر بصفة دائمة . وأهم عامل فى تطور البنية الاجتماعية هو تناقل الثقافة ، وهو ليس أمراً من أمور الوراثة ، ولكنه يعود إلى الاتصال ؛ لأن الثقافة تتعلم ، وتستفاد بالتقليد ، ولكنها لا تورث . ويجب أن نفهم الثقافة هنا فى أعم معانيها لنشمل بها النظم السياسية والاجتماعية والتشريعية ، كما نشمل بها الفنون والحرف والدين ، والأشكال المختلفة للحياة العقلية التى تظهر فى الأدب والفلسفة والميادين الأخرى . وهذه الأشكال جميعها متصل بعضها ببعض إلى حد ما ، ولها طابع عام يشملها ، هو أنها لا تورث من الأب للابن ، بل تتعلمها فى الحياة بعدئذ . ولكن العنصر والثقافة واللغة يتشابه بعضها ببعض من حيث هى جميعاً متعددة النواحى ، متشابكة الأطراف دائما ؛ حتى إن مسلك انتقالها يبدو أشبه بخيط التف بعضه على بعض ، منه بنموذج منظم . وتأتى النتائج من مجموعة متعارضة من الأسباب يصعب أن تحدد بينها الآثار النسبية .

والثقافة الأوربية الحديثة مشتقة من ثقافة الإمبراطورية الرومانية التى كانت هى بنفسها مجموعة من النتائج التى تمخضت عنها

مؤثرات متعددة . كانت الحياة العقلية الهلينية أقواها . ولكن هذه النتائج تفاعلت فأسفرت عن نظام متماسك ، عن طريق القدرة الرائعة على التنظيم ؛ وهي قدرة تعتبر أبرز ما كانت تتميز به تلك الإمبراطورية . وإن جميع الحياة الثقافية فى أوربا فى القرون الوسطى لتبدو فيها هذه الثقافة الهلينية الرومانية المأخوذة المعدلة بحسب الظروف . وحين تبددت الامبراطورية أيدى سبا ، أصبح مجموع الثقافة عرضة لظروف مختلفة ، فى أماكن مختلفة ؛ وأوضح مثال لذلك ما نلحظه من اختلاف بين الشرق الذى كان يتكلم الإغريقية ، والغرب الذى كان يتكلم اللاتينية ، أما مجىء التأثير الإسلامى بطريق أسبانيا ، فلعله الحالة الوحيدة التى نجد فيها ثقافة أجنبية تدخل فى التقاليد الرومانية ، وتترك أثراً فعالا فيها .

والحق أن هذه الثقافة الإسلامية فى أساسها وفى جوهرها جزء من المادة الهلينية الرومانية[1] . بل إنه حتى علم التوحيد الإسلامى قد تحدد

(١) مثل هذه الدعوى العريضة ينضح بالتعصب ضد العرب والإسلام، ويتنافى مع ما للأمانة العلمية من احترام واجب . ولست أدرى كيف يتجاهل المؤلف ما للقرآن — وهو أساس الثقافة الإسلامية — من خطر ، ليدعي أن أساس هذه الثقافة هلينى . وهو يتناسى ما للحديث من أثر ، ويدعى الصبغة الهلينية لكل ما جاء به الإسلام . أفكان من الأساس الهلينى أن رفض المسلمون التماثيل والصور ، وعزفوا عن ترجمة الأدب الإغريقى — وهو جماع ألوان الثقافة عند الإغريق ؟ أو كان من الثقافة الهلينية ماجاء به عمر من أصول القضاء ؟ أو يرى الرائى فى الفن الإسلامى القائم على الزخرف الهندسى ، أو فى العمارة الإسلامية التى ابتدعت لنفسها تطورا خاصا ، أو فى الفلسفة الإسلامية التى احترمت دائما كلمة التوحيد ، أوفى التصوف الإسلامى الذى اتخذ غار حراء نقطة بداية له ، أو فى الإلهيات الإسلامية التى رفضت التعدد والكلام فى الذات ، أقول : أو يرى الرائى أى أساس هلينى لكل أولئك ؟ الجواب عند تعصب المستشرقين !

وتطور بواسطة منابع هلينية ، ولكن الإسلام ظل مدة طويلة منعزلا عن المسيحية ، وحدث تطوره فى بيئات تختلف عنها تماما ، حتى ليبدو غريبا عليها ، أجنبيا عنها . وتظهر أعظم قوة له فى أنه قد عرض المادة القديمة فى شكل جديد جدة تامة .

وسيكون من هم الصفحات اللاحقة أن تتتبع انتقال الفكر الهلينى بطريق الفلاسفة المسلمين ، والمفكرين اليهود الذين عاشوا فى بيئات إسلامية ، حتى نرى كيف أثر هذا الفكر فى الثقافة المسيحية اللاتينية فى القرون الوسطى ، بعد أن تعدل بمروره بمرحلة تطور فى المجتمع الإسلامى ، وعدّل بدوره الأفكار الإسلامية . لقد تغير كثيرا فى شكله الخارجى خلال القرون التى ظل فيها منعزلا ، حتى بدأ نوعا من أنواع الحياة العقلية ، وأصبح عاملا مثيرا ، فحول الفلسفة المسيحية إلى مسالك جديدة ، وكاد يذيب اللاهوت التقليدى فى الكنيسة ، وأدى مباشرة إلى النهضة التى كانت الضربة القاضية لثقافة القرون الوسطى ، ولم يتغير فى مادته الحقيقية إلا قليلا جدا ؛ حتى إنه كان يستعمل نفس المتون ، ويفكر تقريبا فى نفس المشاكل التى كانت تفكر فيها الفلسفة المدرسية التى نشأت مستقلة فى ظل المسيحية اللاتينية . وسيكون من همنا أن نتتبع تاريخ الفكر الإسلامى فى القرون الوسطى ، لتظهر العناصر المشتركة بينه وبين التعاليم المسيحية ، ونعلل جهات الاختلاف .

ديلاسى أو ليرى .